وعن موضوعه - قد يصرفنا عن تاريخ العمل تماماً ، وربما يعجزنا عن التأريخ الدقيق له ، وهو ما ردَّده إليوت فيما طرحه حول ركيزتَىْ الإبداع بين موروثات (أوتقاليد) وبين المواهب الفردية للشعراء ، أو القدرة على الابتكار والإضافة ، فبدا شديد الانشغال بالبعد الثقافى ومتَّكأ الصياغة الجمالية من هذا المنظور الذى تكاد تسقط فيه - إلى حد بعيد - جماعية التجربة ، أو قل اجتماعية التجربة بمعناها الواسع ، حى يصبح من حق الفنان الهروب من شخصه ومن واقعه ، وهو هروب نظرى يفترضه الناقد ، وكأنه يحلل عملا بلا أصول تاريخية أو جذور اجتماعية أو حتى مواقف نفسية ، أو كأن الصياغة ذاتها تتحول - بهذا الشكل - إلى نبت شيطانى بلا جذور ، إلا ما بقى لها من طبيعة الفكر والثقافة التى أدرجها إليوت فى باب الموروثات التى جارت على كثير من مقومات النص الأخرى .

وإزاء قصور هذه النظرة النقدية وأمام عجزها عن كلية الرؤية للنص ، يظل الناقد - أيضا - فى حاجة إلى ضرب من المصالحة النقدية التى يجب أن يجدَّ فى اصطناعها ، حتى تضمن له دقة الإلمام بكل هذه العناصر - أو جلّها - بغية التحليل الدقيق لكل جزئيات النص الأدبى وكشف جوانبه ، والوقوف على أى من مستوياته ، وهو ما اتجهت إليه النظريات الواقعية - على ما بينها من خلافات منهجية وفكرية موزعة بين شرقية وغربية متفائلة أو متشائمة - حين قصدت إلى تجاوز تلك الرؤى الجزئية ، فى سبيل الإدراك الكامل لكل هذه المقومات ، ومن ثم لم تتورَّع أن تأخذ من كل نظرية سبقتها أفضل ما فيها ، فى محاولة لأن تضيف إليها بعدا جديدا ، يتمثل فى احترامها دور الناقد فى تحليل النص ، وحتى هذا الدور يبدو مرهونا بتلك القواعد الموضوعية التى يصدر على أساس منها ، وهى تمثل - بالضرورة - جانبا أساسيا من جوانب تكوينه الثقافى ، إلى جانب احترام الحاسة الخاصة ، أو تقدير الانطباع ، شريطة ألا يطغى إلى حد تسُّيد الموقف ، فتتأكد مَظنَّة إصدار أحكام تأثيرية على طريقة ابن المعتز العباسى أو غيره ممن انصرفوا عن الالتزام بالمستوى الموضوعى فى النقد ، إلى أن قُعِّدت الأصول ، وتحددت القواعد وبرزت الشروط ، والتزم بها من التزم من النقاد فى أطر منهجية النقد عند العرب .

ولاشك أن احترام دور الناقد - هنا - يظل وارداً من داخل عمله باعتباره مسئولا أيضا عن هذا العمل الذى يتبنى تحليله وتقويمه ، وكأنه يشارك بفعاليَّة هائلة فى ذيوعه من عدمه ،